صورة الآخر الإفريقي في المتخيل السردي العربي، قراءة في رواية "ليلة إفريقية" لمصطفى لغتيري.

The image of the African other in the Arab narrative imagination, a reading in the novel "African Night" by Mustafa Laghtiri.

ط.د حليمة قاجوج [1] / جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل/ مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة (الجزائر)، *halima.kadjoudj@univ-jijel.dz*
أ.د كمال بولعسل / جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل/ مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة (الجزائر)، *kamel.boulassel@yahoo.fr*

تاريخ الاستلام: 10 / 11/ 2022 تاريخ القبول: 19 / 12 / 2022 تاريخ النشر: 31/ 12/ 2022

ملخص

تطمح هذه الورقة البحثية الموسومة بعنوان «**صورة الآخر الإفريقي في المتخيل السردي العربي، قراءة في رواية "ليلة إفريقية" لمصطفى لغتيري**»، إلى كشف اللثام عن جدلية قديمة قدم الإنسان نفسه، بين الأنا الجنوبي (جنوب إفريقيا) والآخر الشمالي (شمال إفريقيا) المختلفين لونا ولغة وثقافة، رغم انتمائهما لبيئة محلية واحدة، وهذا جانب مرتبط بالدراسات النقدية التي تركز على الصراع الحضاري بين الشرق المتخلف والغرب المتطور، ناهيك عما تتعرض له هذه الجدلية من أزمات وجودية، تؤدي إلى الشعور بالنقص والضياع والتمزق، الذي تخلفه النظرة الدونية للذات الإفريقية، مما يخلق نوعين من ردة الفعل؛ إما الخضوع والاستسلام للأمر الواقع والقبول بالأوضاع المزرية رغم قساوتها، وإما التمرد على قوانين القبيلة واختيار الهجرة نحو الفردوس الأوروبي كحل بديل، وهو ما يُدخل المرتحل الإفريقي في مغامرة مجهولة العواقب.

الكلمات المفتاحية: الصورة، جدلية الأنا والآخر، إفريقيا، رواية "ليلة إفريقية".

***Abstract*:**

*This carrier research paper, the title "**Image of the African, in the Arab SardExpressor, aspires to read in the novel**" An African Night "by Mustafa Laghirir Color, language and culture, despite their affiliation with one local environment, and this is a complementary aspect of critical studies that focus on the civilized conflict between the backward East and the developed West, not to mention the existential crises that this dialectic is exposed to, leading to a feeling of deficiency, loss and rupture, which is left behind by the inferior view of the African self, This creates two types of reaction; Either submitting and surrendering to the fait accompli and accepting the miserable conditions despite its cruelty, or rebellion over the laws of the tribe and the choice of migration towards the lost paradise as an alternative solution; The immigrant is included in an unknown adventure.*

***Keywords:** image, dialectic of the ego and the other, Africa, novel "African Night".*

[1] **المؤلف المرسل**: حليمة قاجوج، **الإيميل**: *halima.kadjoudj@univ-jijel.dz*

مقدمة:

تتشكل داخل كوامن الإنسان انطباعات متقلبة ومترددة اتجاه أخيه الإنسان، فيصور ذلك من خلال تصرفاته، أو كلماته، وبالتالي يفرز نوعا من النفور أو التجاذب، وهذا يتحدد بالمواقف التي تدفع باللاوعي إلى الاحتفاظ بتلك الصورة، إلى حين عرضها في قالب إبداعي، يكشف أنساقا مضمرة من شأنها أن تؤلب الذات القارئة وتشحنها بطاقة سلبية في أغلب الأحيان، اتجاه ذلك الآخر المختلف لغة وثقافة ودينا، هنا تتشكل الصورة النسقية داخل الخطاب الأدبي، حيث تعمل على إظهارها العديد من التمظهرات السيميائية، كنسق الدونية المتغلغل داخل المقارنة المكانية بين فضاءين مختلفين داخل المتخيل السردي، وألفاظ التهكم والازدراء المتجلية في المناقشات الدائرة بين أبطال الرواية، وحتى علامات الاستفهام المستنكرة لمآل العلاقة بين الذات والآخر.

ويبدو أنّ الكتاب العرب قد جسدوا هذه الجدلية القائمة بين الذاتية والغيرية في تصويرهم الصراع الحضاري بين دول الشرق المتخلف والغرب المتطور، حيث طغت على كتاباتهم نبرة الانبهار والدهشة التي تعلو ملامح كل زائر متطفل لدول أوروبا أو أمريكا، ولعل ما يزيد من حدة هذا الجدل أن جنح الكتاب أنفسهم إلى تصوير الاختلاف الكائن بين أبناء البيئة المحلية الواحدة، فعمدوا إلى تقسيم الدول العربية إلى شقين، شق يتميز بالقوة والازدهار كدول الشمال الإفريقي مثلا، وشق يرزح تحت وطأة التخلف والعبودية كدول الجنوب الإفريقي، فتميزت كتاباتهم بالمقارنة بين هذين البيئتين، دون نسيان التطرق للأوضاع السياسية والحروب الأهلية التي مكّنت الدول الغربية من غزو الدول المستضعفة، وترسيخ مبادئ الخطاب الكولونيالي.

وانطلاقا من هذه التصورات تتشكل في ذهن الباحث إشكالية محورية تدور حول مدى أهمية الصراع القائم في الذهنية العربية اتجاه الآخر الإفريقي، حيث تمازجت النظرات بين الانبهار بالعالم الأسطوري الذي ترسمه الأدغال الإفريقية بغاباتها وحيواناتها واختلافاتها الأنثربولوجية، وبين الازدراء الذي ظل لصيقا بالزنجي حتى بعد تحرره من سطوة الاستعمار الغاشم وسيطرة الخطابات الكولونيالية، فكيف تجلت إذن صورة الزنجي في الإبداع العربي، خاصة عند أدباء الشمال الإفريقي القريبين من أوروبا، التابعين جغرافيا للقارة السمراء؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية وقع اختيارنا على رواية **"ليلة إفريقية"** للكاتب المغربي مصطفى لغتيري، لما فيها من نظرة استشرافية للواقع، والتي تطرح بدورها العديد من الأسئلة الوجودية المقلقة، حول الإنسان، العِرق، اللون، نظرة الآخر الأوروبي للذات الإفريقية، نظرة هذه الأخيرة للآخر المغربي، وهل من سبيل للتحاور الحضاري بعيدا عن المقارنات العقيمة، التي تلغي خاصية التميز والاختلاف بين الأجناس البشرية؟

1. توطئة نظرية/ اصطلاحية:

1.1. من الصورة إلى الصورولوجيا:

عندما نتأمل مفهوم الصورة في الدراسات النقدية المعاصرة، نلاحظ وجود توجهات كثيرة، كلها استثمرت هذا المصطلح، للتعبير عن أسسها النظرية، فنجده حاضرا في مجال التصوير والمونتاج، والدرس الجغرافي، والأشرطة الوثائقية، حتى الصور والرسومات المدرجة إبداعيا داخل النصوص الأدبية في ظل

التداخل بين الأجناس الأدبية وغير الأدبية، فتجمع بين التشكيل البصري المجرد، والحضور الذهني للمعنى بعد اكتماله في ذهن المتلقي.

وما يهمنا في هذا المقام هو المفهوم الاصطلاحي لهذه الكلمة داخل حيز الأدب والنقد، حيث جاء في **"معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة"** لسعيد علوش: «الصورة إنتاج للخيال المحض، وهي بذلك تبدع اللغة، وتعارض المجاز، الذي لا يخرج اللغة عن "دورها الاستعمالي"»[1]، والمقصود من هذا التعريف هو المعنى الداخلي الذي يتشكل في ذهن الكاتب أولا، فيعمل على تشكيله لغويا باستعمال الكلمات، وينتقل ثانيا إلى القارئ، الذي بدوره يحاول تشكيل صورة ذهنية انطلاقا من خلفيته الثقافية القادرة على تقنص هذا النص وتفكيكه، ومن ثم رسم صورة ثانية للمعنى، قد تثري النص وتمنحه دلالات أخرى لم تكن موجودة في ذهن الكاتب حين رقم النص وإخراجه جاهزا للطباعة.

والصورة في عرف بعض النقاد تمثل «الشكل في النص الأدبي، وتقابل المضمون الذي هو الفكرة أو المعنى في النص، فعلى هذا تكون الصورة التي هي الشكل في النص الأدبي شاملة للعبارة، أي الأسلوب، وللخيال الذي يلون العاطفة ويصورها»[2]، فالصورة وفق هذا المفهوم تركيب جامع بين عناصر الكتابة الإبداعية داخل النص الأدبي، والذي يتشكل عبر اللغة أولا ثم الأسلوب ثانيا، وأخيرا الخيال الذي يعمل على خلق عوالم تخييلية مخالفة لما تم الاعتياد على رؤيته في الواقع، من شأنها إثراء النص، وجذب مزيد من القراء التواقين إلى تذوق النصوص الأدبية، واستشعار الجمال الخفي خلف الصور المشكلة بعناية من طرف الكاتب، وبالتالي فإن للصورة مداخل ومخارج، و«لها أنماط للوجود وأنماط للتدليل. إنها نص، وككل النصوص تتحدد باعتبارها تنظيما خاصا لوحدات دلالية متجلية من خلال أشياء أو سلوكات أو كائنات في أوضاع متنوعة»[3]، تخلق شعورا بالجاذبية العينية للشكل النهائي الذي برعت في رسمه الذات الكاتبة.

وقد تم استعارة مصطلح **"الصورة"** في الدراسات المقارنة، لمّا عمد النقاد إلى استكناه طبيعة العلاقة بين الذات والآخر في الأعمال الأدبية، فظهر نتيجة لذلك مصطلح **"الصورولوجيا"(Imagologie)**، ويعرّف في الكتب النقدية بأنّه «ذلك الجانب من الإبداع الذي يقدم صورة واضحة المعالم عن الكيفية التي يكون عليها شعب أو وعيه في لحظة معينة، والكيفية التي يرى بها الشعوب الأخرى وقت التماس معها أو التفكير فيها أو الإشارة إليها»[4]، حيث تتعدد الصور هنا بين الانبهار تارة، والازدراء والتردد والشك تارات أخرى، ويرجع ذلك إلى الانطباع الأول الذي يخلفه المشهد في الشخص المحتك بالثقافة المخالفة.

والصورولوجيا في العموم «اصطلاح ظهر في الأدب المقارن، ليشير إلى دراسة صورة شعب عند آخر، باعتبارها صورة خاطئة»[5]، ويتشكل ذلك الخطأ من اللقاء الأول الذي عايشه الإنسان لحظة تماسه مع الآخر المختلف عنه في المعتقد والتفكير واللغة، وسنحاول في ما يأتي التركيز على كيفية تشكل هذا الانطباع في الذات الإنسانية قبل انتقالها إلى العالم المحسوس في شكل خطاب قولي أو كتابي، يفضح الكثير من الطابوهات المتخفية وراء الكلمات المتراصة بجانب بعضها البعض.

2.1. جدلية الأنا/ الآخر:

لقد اشتغل النقاد العرب على تفكيك هذه الجدلية، وفضح المرجعيات الفكرية التي خلفت ذلك الصراع بين الأنا والآخر؛ هذا الأخير يتّخذ في التمثل الشائع «معنى تنحصر دلالته في الآخر المتميز عن الأنا الفردية أو الجماعية. وتكون أسباب هذا التميز إما مادية جسمية، وإما عرقية أو حضارية أو فروقا جوهرية أو

طبقية. ومن هذا المنطلق ندرك أن مفهوم الغير في الاصطلاح الشائع يتحدد بالسلب، لأنه يشير إلى ذلك الغير الذي يختلف عن الذات ويتميز عنها، ومن ثمة يمكن أن تتخذ منه الذات مواقف، بعضها إيجابي كالتآخي، والصداقة، وأخرى سلبية كاللامبالاة، والعداء»[6]، إلى غيرها من التمثلات المخيالية التي تسيطر على الأنا باعتبارها منبع الفكرة ومركز النظر، فهي المشكلة لشعور التوتر داخل الذات اتجاه الآخر، ومن ثم تجنح إلى الدفاع عن نفسها باستهداف نقاط الاختلاف والتميز في كلا الجنسين، فتحاول الانتصار لعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها على حساب الآخر.

وقد تمكنت الرواية بفضل هيمنتها على الأجناس الأدبية الأخرى، وقدرتها على التجوال الحر في الزمان والمكان أن «تتيح للمتلقي مواجهة أسئلة تثيرها الحياة، تدور حول "الأنا" وما يعترضها من أزمات في أثناء تشكيل هويتها، خصوصا حين يصطدم بالآخر. فتتضح أمامه إشكالية الأنا والآخر، وتتبدى له التشوهات التي تحاصر الذات، مثلما تحاصر الآخر، وبذلك تستطيع الرواية أن تتسلل إلى أعماق الإنسان، لتناقش ما يكنه في لاواعيه، خصوصا مشاعر الكراهة المخبوءة في أعماق الذات اتجاه الآخر»[7]، ومنه تتجسد هذه الجدلية عبر مجموعة من «الرؤى والأنماط والصور المتقابلة سواء كانت سلبية أم إيجابية تترجم لنا ثنائية الشرق والغرب، وثنائية الذكورة والأنوثة، وثنائية التقدم والتخلف، وثنائية العلم والجهل، وثنائية المادة والروح»[8]، بالإضافة إلى ثنائيات أخرى تختبئ كأنساق ثقافية مضمرة خلف التراكيب اللسانية التي تصاحب الوصف المشهدي لأفضية الرواية، من شأنها تأجيج الصراع بين الذات المترددة، والآخر الذي يسعى إلى اغتصاب الهوية ومسخها عن طريق إلغاء الاختلاف والدعوة إلى الوحدة الثقافية.

وتعد الرواية التي تتناول خطاب الهجرة/ النفي/ الرحلة، من أهم التوجهات الروائية المعاصرة إثارة لموضوعات هذه الدراسة، من بينها: المفارقات الحضارية، إنتاج الصورولوجيا، صورة الآخر، الصراع الإثني بين مختلف الأديان والمعتقدات، ويتجلى ذلك في فعل الحركة الذي يتعمده البطل، عند احتكاكه بالعالم الآخر، وممارسة طقوسه وعاداته المختلفة عنه، بداية من اللغة وصولا إلى فعل الصلاة.

وتبقى الذات في مواجهتها لحضارة الآخر جدلية حتمية تاريخية «لكونها جزءا أساسيا من المواجهات المستمرة بين الشعوب بثقافاتها وحضاراتها المختلفة، والذات هنا هي الفرد المبدع بما يحمله من تميز وبما يشترك فيه من خصائص وموروثات مع غيره من المنتمين إلى جنسه وثقافته، وفي تاريخ الآداب العالمية الكثير من الأعمال التي تسجل تفاعلاً ذاتياً بين الفرد وبين ثقافات الشعوب الأخرى سواء اتخذ ذلك التفاعل هيئة التأثر والتأثير، أو انبثق في شكل مواقف وتأملات»[9]، تظهر جليا في أقوال الشخصيات داخل الرواية، وقد تزداد وضوحا في الحوار المونولوجي، عندما تعمد الشخصية إلى مساءلة الذات والإفصاح عما يجول في الخاطر من أفكار وتصورات اتجاه الآخر المختلف.

3.1. إفريقيا في الخطاب الكولونيالي:

تجدر الإشارة عند التحدث عن قارة إفريقيا في هذا المقال، أنّ هذه الورقة البحثية لا تهتم بالتركيز على المعلومات الجغرافية الخاصة بدولة من الدول التابعة، أو إحصاء عدد السكان داخل أقاليم الجنوب، أو تتبع تاريخ الحضارة الإفريقية على شاكلة ما يقوم به الدرس الأنثربولوجي، بل ستعرض إلى استحضار الماضي التاريخي المشترك بين شعوب القارة السمراء، أثناء الاستعمار الأوروبي وما انجر عنه من صدمات حضارية، ولّدت خطابات كولونيانية، رسّخت بدورها ثنائيات(القوة /الضعف)، (التطور /التخلف)، فاستطاع الاستعمار

بذلك توريث استعباد فكري عميق وممنهج في جميع مجالات الحياة، حتى غدت إفريقيا مضرب المثل في الفقر والمجاعة والتمييز العنصري.

بداية سنحاول استعراض القول النقدي الذي تعرّض لذكر أصل كلمة "إفريقيا"، حيث يرى صاحب القول «أن هذا الاسم مشتق من إفريقش ملك اليمن الذي كان أول من سكن هذه البلاد، فلما لم يستطيع الرجوع إلى مملكته بعد أن غلبه الملوك الأشوريون وطردوه، اجتاز النيل مسرعاً، ثم تابع سيره نحو الغرب، ولم يقف حتى وصل إلى ضواحي قرطاج، لذلك نرى العرب لا يكادون يعتبرون إفريقيا سوى ضاحية قرطاج نفسها، بينما يطلقون اسم المغرب على سائر إفريقيا»[10]، ما يهمنا في القول أن هذه القارة تحمل حضارة عريقة، كُتب لها الصمود في وجه كل التيارات التي حاولت مسخها منذ قديم الزمن، «إنها ليست الشرق وليست الغرب، ولكنها تقف على باب كل منهما وتمسك بيدها وبموقعها زمام الطرق بين المحيط الهندي والمحيط الأطلنطي، بين آسيا وأوروبا وأمريكا وأستراليا؛ على السفن أن تخترق مياهها، وعلى الطائرات أن تحلق في أجوائها، ويمكن للقذائف الصاروخية أن تنطلق منها في جميع الاتجاهات لتصيب أهدافها المقصودة في دول الكتل الشيوعية والغربية على السواء. وفضلا عن استراتيجية الموقع الإفريقي فهناك ما فيها من ثروة معدنية وزراعية، تجعل من القارة أمل العالم في إنقاذه من الجوع»[11]، إن أحسن سكانها استثمار خيراتها، وإلغاء التبعية لكل الدول الإمبريالية التي تروم السيطرة عليها ومسخ ثقافتها، بحجة العولمة التي تطمح إلى جعل العالم قرية صغيرة موحدة الثقافات والقيم.

إن إفريقيا رغم فقر بلدانها وانتمائها القهري إلى دول العالم الثالث، تعد من أغنى قارات العالم، إذا تم التقصي عن الثروات الطبيعية واللسانية، فهي قارة «تعانقت فيها مناجم الذهب مع الماس، والفحم مع الحديد، يصعب التصديق أن في بعض بلدانها، لغات تفوق المئات، وقبائل متعددة الفئات، شعب اشتهر بالاستعباد يتوق دوما للحرية، فاشتهر أيضا بالثورات والانقلابات العسكرية، قبل الاستقلال وبعده»[12]، وخلال هذه الفترة الحرجة من تاريخ القارة السمراء مارس الأوروبيون أعمالا «يصعب على العقل المعاصر أن يتصورها وقد ترتبت عليها أيضا نتائج جد قاسية، من ذلك أن الأوروبيين لم يقتصروا على استعمار إفريقيا والاستيطان في أجزاء منها، وإنما عملوا على تحويل الإنسان الإفريقي إلى سلعة تباع وتشترى في أسواق اقتصادية رائجة في مرحلة غابت فيها كل المعايير والقيم»[13].

لكن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما استرجعت شعوب إفريقيا أنفاسها «فغدت تنقضُّ شرسة على محتليها، ليبدأ كفاح مسلح مستميت، لم يقف لحظة حتى تحقق للإفريقي الاستقلال، وأخذ يرى الدنيا بعيون إفريقية، ويفسر الأحداث بمفهوم إفريقي سليم»[14]، فزالت الغشاوة بعدما استمرت ردحا من الزمن، وحاول الرجل الإفريقي إعادة الاعتبار لذاته بعدما تم تهميشه من طرف الآخر المتعالي، واستطاع التمهيد لكتابة تاريخه الذي لم يكتب بعد «فالمستعمرون كتبوا واستكتبوا فصولا عن غزواتهم، ومعاركهم، فمجدوا بطولاتهم، واعتبروا مقاومة الإفريقيين ضربا من البربرية والتمرد، على الذين يحملون إليهم نعمة الحضارة، فإذا بتاريخهم ذو وجه واحد، لا وجود فيه للوجه الآخر، وجه الإفريقي الذي هو الأصل، لأنه صاحب البلاد وسيدها الأول»[15]، فتبلورت كتابات أدبية ثرية بروح إفريقيا، كلها تحاول الدفاع عن البلد المنهار، بكتابة تاريخه قبل الاستعمار وبعده، وتدعو إلى النهوض وكسر أغلال التخلف المحيطة بقارة اسمها "إفريقيا".

وستبقى هذه القارة رغم الجهود التعسفية التي تطمح إلى تحقيقها دول الغرب الإمبريالية لسلب ثروات البلاد واستعباد سكانه عسكريا وثقافيا، حاضرة الذهب والعاج، وسيدة الرمح والثقافة المختلفة والغنية غنا الفحم الأسود في بشرة كل زنجي ينتمي إلى إفريقيا الأم/ إفريقيا الثقافة/ إفريقيا السلام.

2. صورة الآخر الإفريقي في رواية "ليلة إفريقية" لمصطفى لغتيري:

تعد رواية **"ليلة إفريقية"** من أبرز الروايات التي صورت جدلية الأنا المغربي والآخر الإفريقي، حيث ناقش مؤلفها العديد من المسائل التي من شأنها خلق حساسية بين النص والمتلقي، الذي يجد نفسه مترددا بين الانبهار بالعادات والتقاليد ذات اللمسات الخاصة، وبين النظرة الدونية؛ حينما يعمد المؤلف إلى وصف التخلف والرجعية التي وصلت إليها دول إفريقيا في ظل الاستعمار الأوروبي، مما كرّس خطاب الاستعباد والعنصرية، وأدّى إلى مسخ معالم حضارة عريقة ذات جذور ثقافية راسخة.

وقد تعددت الصور داخل الرواية، بين نظرة المستعمر الأوروبي للدول المستعمرة التابعة له، ونظرة الإفريقي لذاته بالمقارنة مع رؤية الآخرين له، ولا ننسى نظرة العربي الذي يجمع بين كلتا النظرتين لتأسيس تصور شامل يسعى إلى تصحيح رؤيته للعالم، بتقديس الاختلاف وقبول التحاور بين الثقافات دون صراع أو انتقاص قد يزيد من حدة التوتر بين أبناء البيئة المحلية الواحدة.

1.2. صورة الأنا الإفريقي عند الآخر الأوروبي:

تتجلى نظرة الآخر الأوروبي اتجاه مستعمرات الدول الإفريقية، في الاستعلاء البادي على كل سائح متجول بين أدغال القارة السمراء، وتجلى ذلك واضحا في كتب الاستشراق الأولى، التي تصف دول الجنوب بالتخلف والتقهقر في كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، خلال ذلك أظهر المستعمر نوعا من التعاطف اتجاه الآخر لتمرير مخططاته الاستدمارية الساعية إلى نهب ثروات البلاد، وتكميم الأفواه بذريعة نشر الثقافة بين دول العالم الثالث، يقول الراوي: «فجأة انبثقت في ذهني من حيث لا أدري معاناة إفريقيا الطويلة، بطولة تاريخها الحديث.. فظاعات ارتكبتها القوى الاستعمارية في إفريقيا الوسطى، وجنوب إفريقيا، والقرن الإفريقي، وبلاد الساحل، وشمال إفريقيا.. تداعى في خاطري الاستغلال الفاحش لثرواتها الطبيعية واستنزاف موادها الأولية، ثم لعلع وسط كل ذلك تاريخ الرق، بقبحه وسماجته.

تخيلت فتيانا أفارقة يختطفون من قبائلهم الهادئة الجميلة، ويشحنون عنوة وقصرا نحو أمريكا لاستعبادهم في أراضي البيض وضيعاتهم.. وبعد أن انسحب الاستعمار كان قد ترك خلفه وضعا مأساويا لا يستقيم حاله. أحيى النعرات الإثنية والدينية، وقسم بلدانا وأنشأ دولا، دون مراعاة للامتداد البشري والثقافي والإثني، فضمن بذلك وضعا هشا ومضطربا، يسمح للدول العظمى بالتدخل أنى وأينما شاءت، بلاوٍ بلا حصر لا تزال إفريقيا تعاني من ويلاتها إلى اليوم.. حروب متتالية واستقرار سياسي واجتماعي مفتقد، ومجاعات أضحت علامة مميزة عالميا لهذه القارة الجريحة»[16]، التي خضعت رغما عنها لمخططات هيمنة شاسعة، جعلتها ترزح تحت ظل العبودية والتخلف حتى اليوم، رغم جميع المحاولات الداعية إلى التحرر الشامل على كافة الأصعدة السياسية والثقافية.

وقد تجسدت ملامح العجيب والفانتازي عند السائح الأوروبي الذي يحاول تلمّس معاني الغرابة في طقوس الأفارقة ولباسهم المختلف، حتى لون البشرة الذي يرسخ مفهوم الزنوجة والتمييز العنصري، يقول الراوي في حوار دار بينه وبين شخصية أخرى من شخصيات الرواية: «متحمسة وحالمة قالت:

-أتخيل كرستينا ابنة صياد إفريقي، يقضي سحابة يومه يطوف في أدغال إفريقيا، يطارد الحيوانات المتوحشة، يصطادها ويبيع جلودها إلى عصابة أوروبية متخصصة في تهريب هذا النوع من البضاعة.

-اعذريني، أمل. هذه صورة نمطية تقرفني.. أفضل أن أتخيل كرستينا فتاة من أسرة فقيرة، تسكن قرية صغيرة، توجد في إحدى ضواحي عاصمة إفريقية كبيرة. وأبوها عامل، فينتقل بدراجته النارية كل صباح إلى أحد المصانع في المدينة من أجل كسب قوته.

-لن نختلف، في الأمل، لكن أعتقد أن إفريقيا بدون أدغال ستفقد كثيرا من توهجها.

-اسمحي لي هذه نظرة أوروبية متعالية، تربط إفريقيا دائما بالغريب والعجيب، وكأن الأفارقة كائنات غير بشرية. أريد قصة تركز على هموم الإنسان الإفريقي وطموحاته»[17].

وهذه نظرة دونية مازالت ماثلة في عيون الإنسان الأبيض المتحضر، اتجاه الآخر الإفريقي مروّضِ الفيلة والأسود، والراقص على أنغام النار المشتعلة بقرابين فداء لا بد منها لإثبات الرجولة أمام فتيات قبيلته، دون أن يتعدى طموحه التمرد على تلك القوانين البدائية. وسنحاول في المخطط أدناه توضيح العلاقة الجامعة بين الأنا الإفريقية والآخر الأوروبي، نركز فيه على نظرة هذا الأخير باعتباره الطرف القوي في الجدلية، وكاتب التاريخ من وجهة نظره كمنتصر ومستبد:

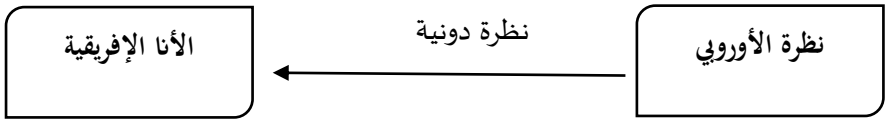

2.2. صورة الأنا الإفريقي عند الآخر المغربي:

حاول الكاتب المزج بين نظرة الانبهار والازدراء التي يشعر بها الإنسان المثقف اتجاه الاختلاف المحمود بين أبناء البيئة المحلية الواحدة، في ظل التعايش السلمي بين جميع طبقات المجتمع، اقتداء بما سنه الإسلام في طريقة التعامل مع الأجانب، نتلمس ذلك في قول بطل الرواية: «اختلست نظرات متفحصة نحو الفتاة الإفريقية.. كانت جلدتها لامعة، وعيناها جميلتان، فيما شعرها مشكل بضفائر صغيرة ومتشابكة. كان لها سحر أميرة إفريقية، قد انبثقت فجأة من إحدى الأساطير القديمة.. للحظة تخيلتها ترتدي ملابس محلية متعددة الألوان، فاقعة وزاهية، يكلل رأسها تاج ذهبي لامع، وهي تمتطي صهوة فيل ضخم يجتاح الأدغال بثقة وثبات، ومن حولها يدق الأهالي على الدفوف، ويرددون أهازيج إفريقية مبهجة..

بدا لي أن الفتاة تفطنت إلى اهتمامي المفرط بها، فرمقتني بعينين باسمتين، وهي لا تزال منهمكة في تناول وجبة طعامها الخفيفة.. حين اكتفت من الطعام، أخرجت من حقيبتها منديلا صغيرا. مسحت يديها وفمها، ثم تناولت قنينة ماء، وعبت بعض الجرعات، بعد ذلك أرجعتها بهدوء وإتقان إلى حقيبتها.. كان في حركاتها شيء ما تملك علي لبي، همت من جديد في خيالاتي، محاولا أن أتصور الموكب الإفريقي البهيج، وهو يتقدم في طريقه، محتفيا بالأميرة الصغيرة»[18]، وهذا التشبيه الجمالي الذي تعمد الكاتب الإفصاح عنه، يدل على انبهاره بالمرأة الإفريقية المثقفة، التي تفننت في إظهار ملامح الأنوثة والأناقة في تصرفاتها الدالة على حسن التعامل مع الأجانب في بلادهم، كونها غريبة الديار، تسعى بما تملكه من ثقافة واحترام إلى إبعاد نظرة الدونية نحوها بكل الطرق السلمية.

وقد تمكن الكاتب من تسليط الضوء على الجوانب الإيجابية التي تزخر بها الدول الجنوبية، فهي رغم الصعوبات التي يعاني منها المجتمع الإفريقي، تبقى حاضنة الشعراء ومنبع اللغات: «بعسر تخلصت الفتاة من مسحة الحزن التي ارتسمت على وجهها ثم أجابت:

-الحمد لله.. نحن الآن ننعم بالاستقرار، وهذا جيد، أما الأمور الأخرى فمغلوب عليها.

-وكيف حال الناس هناك؟

-إنهم مرحون ومتسامحون. لدينا الكثير من الإثنيات والأديان. لكنها متعايشة بشكل جيد. أما على المستوى الجغرافي، فالأرض متنوعة التضاريس، وتمتاز بغطاء نباتي كثيف ومتنوع.

-وحال الثقافة؟

-بالطبع لدينا شعراء وكتاب، وهم في أغلبهم يستلهمون التراث الشعبي المحلي، والطبيعة بتنوعها وجمالها حاضرة بقوة في إنتاجاتهم الأدبية.. حقيقة لدينا بلد جميل ولا يمكن أن لا يؤثر على الأدباء.

-لا أشك في ذلك.. إفريقيا زاخرة بتنوع طبيعي وثقافي لا مثيل له»[19]، وهذا ما شجع الكتّاب على سبر أغوارها، لكشف المخبّأ فيها من ثقافة وعلم وطريقة تفكير.

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أنّ الكاتب تمكن من التغلغل في كوامن الروح الإفريقية، بوصف طرق الفضفضة عن المشاعر، ويكون ذلك بالرقص على أنغام الطبل وموسيقى الذات: «بدت لي الفتاة الراقصة التي تقود رقصات صويحباتها، مثالا فنيا بديعا لإفريقيا الشابة والحيوية، التي تفور حماسا وتتدفق حياة. لكنها للأسف مكبلة بإرث ثقيل، ومشاكل بلا حصر.. كل ذلك يحد من انطلاقتها وتوهجها (...) جاء دور راقصات السنيغال، فدخلن بدورهن إلى خشبة المسرح، وبرعن في أداء رقصتهن.. أحسست بالتشابه الكبير بين أنواع الرقص الإفريقي الفلكلوري.. خفة في الحركة وقوة الأداء، ومرونة في أجساد الراقصين والراقصات.. إنها إفريقيا الموحدة، يوحدها ذوق أهلها وفنهم، لا أنكر مدى المتعة التي وفرتها لي هذه الليلة الإفريقية الفريدة»[20]، وهذا نوع من الانبهار الثقافي الذي يشد المتلقي إلى تخيل ملامح إفريقيا في رقصة مغربية، تندد بالكثير من الاعتراض وتدعو الزائر إلى معرفة تقاليد الدول الإفريقية، فتخلق بذلك تميزا وتفردا، يُثبتُ جدارتَه تمسكُ الإفريقي بتقاليده والاعتزاز بها في المهرجانات المحلية والدولية.

أما النظرة الأخرى التي أفصح الروائي عنها، فهي نظرة الازدراء التي يرى بها فئة من المجتمع المغربي الزنجيَ صاحب البشرة السوداء، وقد أوضح ذلك في الموقف الذي جرى للراوي في محطة الحافلات، يقول يحيى البيضاوي بطل الرواية: «أثار انتباهي وجود فتاة سوداء تجلس منفردة في الزاوية، وكأنها تحتمي من خطر وشيك الوقوع.. رتبت أموري في المقطورة.. وضعت الحقيبة في الرف العلوي، ثم جلست، كانت الفتاة تجلس في الكرسي المقابل لي.. تأملتها بعمق سحنتها تدل على أنها قادمة إلى المغرب من إحدى الدول الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى.. أعرف أن أعدادا متزايدة من الأفارقة يقصدون المغرب في المدة الأخيرة، إما طلبا للدراسة أو معبرا نحو "الفردوس الأوروبي".. لاحظت الفتاة اهتمامي بها، فرمقتني بنظرة خاطفة، ثم ما لبثت أن تقوقعت على نفسها.. في المقصورة فتاة جميلة، مزهوة بنفسها، ترتدي ملابس عصرية أنيقة، تسمح لسرتها كي تطلع باستحياء. تظهر وتختفي حسب تحركات الفتاة وطريقة جلستها.. كانت الفتاة تنظر إلى الفتاة الإفريقية بين الفينة والأخرى، وفي نظرتها كثير من الاحتقار للفتاة، وكأنها كائن مسخ يوجد بيننا»[21]، وهذه نظرة شائعة بين

أفراد المجتمع شمال إفريقيا، خاصة للأفارقة الذين هاجروا بلادهم نحو الشمال دون رخصة شرعية تسمح لهم بالولوج إلى منفذ الأمان والخلاص من الرق والحروب التي يعاني منها كل إفريقي قادم من دول الجنوب.

وقد تطفح أحاسيس العداء على ألفاظ الراوي الذي اختار مصطلح **"المرأة السوداء/المرأة الإفريقية"**، ليظل لصيقا بكريستينا رغم معرفته بالاسم، وكأن جوهر الإنسان في لونه، فهو الفارق الذي يحدد هويته ويمنحه رخصة التعايش مع الآخر: «لاحظت ذلك، فشجعني على إعادة الاعتبار للفتاة الإفريقية من خلال اهتمامي بها، بيتت النية بأن أتحدث معها، لكنني لم أكن متعجلا.. تركت الأمور تنساب بعفوية حتى لا أبدو تافها، ومتسرعا، خاصة وأن سني كان يلجمني من الانسياق وراء رغباتي.. أخذت الفتاة الإفريقية كأسا صغيرا من حقيبتها وأخرجت لمجة، وبدأت في تناولها..»[22]، وهذا السياق ينبي عن محاولة لرد الاعتبار للآخر الذي تمكن عن طريق حسن تصرفه لفت الانتباه، وإبراز كينونة تجاهلتها النظرة الحادة للون والعرق دون النظر إلى الطبيعة الإنسانية في فطرتها الأولى.

وهذه النظرة الدونية لا تنحصر فقط في النظرة إلى الجنوب الإفريقي، بل هي ممتدة من الشمال إلى الجنوب، باعتبار المغرب تنتمي إلى إفريقيا وإن كانت لصيقة بدول أوروبا، حيث تعد بوابة النجاة لكل مهاجر أراد الوصول إلى الفردوس الأوروبي: «أخبرتك، إنها طالبة في الاقتصاد، وتعاني من بعض المشاكل في المغرب، الجهلة يعاملونها ويعاملون باقي الأفارقة السود بدونية واحتقار. صمتت أمل قليلا ثم قالت:نعم هذا مشكل عويص ومعقد، نحن نحتج ونغضب حين يعاملونا الأوربيون بعنصرية واحتقار، ونمارس نفس السلوك على الأفارقة، رغم أنهم يمثلون امتدادنا الطبيعي وأكثر من خمس سكان المغرب هم من ذوي البشرة السوداء والسمراء، بحكم انتمائي إلى مدينة طنجة أعيش على إيقاع هذا المشكلة.. الأفارقة يملئون الأزقة بحثا عن فرصة للهجرة نحو أوروبا، وهم يعانون من ويلات عدة»[23]، فنظرة الدونية هذه ستظل تلاحق كل سكان القارة السمراء حتى خارج بيئتهم المحلية، وستكون وطأتها أشد في الدول الأوروبية ذات التاريخ العدواني الذي خلف تشوها فكريا مازالت آثاره ماثلة حتى الساعة.

وسنحاول في المخطط أدناه توضيح العلاقة الجامعة بين الأنا الإفريقية والآخر المغربي، نركز فيه على نظرة هذا الأخير باعتباره الطرف القوي في الجدلية، وصاحب النفوذ المؤقت، وحاضن المهاجرين كرها في بلاده:

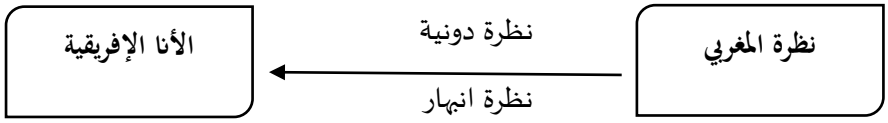

3.2. نظرة الذات الإفريقية للآخر المغربي:

هيمنت نظرة الانبهار على مقولات المرأة الإفريقية داخل الرواية موضوع الدراسة، فهي معجبة بالقوانين النظامية التي تتبعها الدول الشمالية مع مواطنيها الأصليين وحتى الغرباء، رغم وجود بعض التحيز للطرف الأول على حساب الثاني، مما يخلق صعوبات في التأقلم داخل بيئة مختلفة حتى في البنية التحتية: «لقد زرت، قبل المغرب، بلدانا إفريقية عدة. وقد أثارني عند المقارنة أن المغرب قطع أشواطا لا بأس بها في مجال البنية التحتية، هناك سكك حديدية تربط بين المدن الكبرى على الأقل، وهي جيدة على العموم، ثم

الطرق السيارة التي لا تكاد دولة إفريقية تتوفر على مثلها، إذا استثنينا بعض الدول كجنوب إفريقيا ومصر مثلا، وموانئ كبيرة وجامعات في أغلب المدن المغربية. وهذا بالضبط ما أفتقده شخصيا في بلدي»[24].

حيث تمّ التماس مفارقة مكانية بين الفضاءين، وهذا ما زرع الاندهاش في قلب المرأة الإفريقية، التي عايشت قسوة التخلف والمعاناة في بلادها، فاضطرت للهجرة نحو دول الشمال الإفريقي لمواصلة الدراسة، دون رغبة في العودة إلى الوطن الأم، وقد قامت باختيار تخصص الاقتصاد في الجامعة المغربية، وهنا تنبيه للقارئ إلى الترف الفكري الذي تقمصته شخصية كرستينا الإفريقية، من خلال اختيار تخصص لا يمكن الاستفادة منه إذا استمرت الأوضاع المزرية في جنوب الصحراء الكبرى.

وقد ركز الكاتب على تعداد الصعوبات التي يعاني منها المهاجر الإفريقي في دول العالم الثالث، وتجلى ذلك في الحوار الذي دار بين يحي البيضاوي -الذي يرمز من خلال لقبه إلى البشرة البيضاء، وهذه علامة دالة على التحيز الكبير بين الجنسين- والفتاة الإفريقية:

«-كيف تجري أمورك في المغرب؟

فكرت لحظة ثم أجابت:

-لا بأس كل شيء على ما يرام.

لم يقنعني جوابها العام فتداركت سائلا:

-هل تعانين من صعوبات ما في التأقلم مع المغاربة؟

-لا أبدا.. هناك بالطبع صعوبات بسيطة وعادية، يوجد مثلها في أي مكان من العالم.. المهاجر يبقى مهاجرا حتى وإن حلت كل مشاكله.

حتى وإن كانت إجابتها منطقية فإنها تحتوي على كثير من الدبلوماسية والمجاملة. إذ أعرف حق المعرفة ما يعانيه الأفارقة في المغرب من صعوبات»[25]، حيث يتلقى المهاجر مصائب عديدة في سبيل البحث عن حياة رغيدة، ولكن حياته لا تعرف الاستقرار، سيظل يعاني ويلات قراره المتخذ قبل الهجرة، إذ لا مكانة له خارج حدود بلاده، سينظر إليه السكان الأصليون نظرة غريب محتقر ترك بلاده وأتى عنوة يقاسم الأرض والرزق والحياة.

وسنحاول في المخطط أدناه توضيح العلاقة الجامعة بين الأنا الإفريقي والآخر المغربي، نركز فيه على الانطباع الذي خلفته مخالطة الأجنبي في الذات الإفريقية، باعتبارها الطرف الغريب في الجدلية، والدخيل المشكوك في صدق نواياه وحركاته:

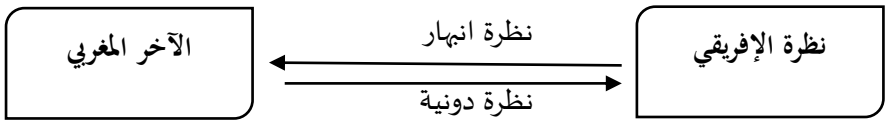

خاتمة:

تخلص هذه الورقة البحثية إلى عدة نتائج، يمكن إدراجها كالتالي:

- لقد جنح الكتاب العرب إلى تصوير الاختلاف الكائن بين أبناء البيئة المحلية الواحدة، فعمدوا إلى تقسيم الدول العربية إلى شقين، شق يتميز بالقوة والازدهار كدول الشمال الإفريقي مثلا، وشق يرزح تحت وطأة التخلف والعبودية كدول الجنوب الإفريقي، فتميزت كتاباتهم بالمقارنة بين هذين البيئتين.
- الصورولوجيا مصطلح ظهر في الأدب المقارن، ليشير إلى دراسة صورة شعب عند آخر، باعتبارها صورة خاطئة، ويتشكل ذلك الخطأ من اللقاء الأول الذي عايشه الإنسان لحظة تماسه مع الآخر المختلف عنه في المعتقد والتفكير واللغة.
- تبقى الذات في مواجهتها لحضارة الآخر جدلية حتمية تاريخية، تظهر جليا في أقوال الشخصيات داخل الرواية، وقد تزداد وضوحا في الحوار المونولوجي، عندما تعمد الشخصية إلى مساءلة الذات والإفصاح عما يجول في الخاطر من أفكار وتصورات اتجاه الآخر المختلف.
- لقد تعددت الصور داخل الرواية، بين نظرة المستعمر الأوروبي للدول المستعمرة التابعة له، ونظرة الإفريقي لذاته بالمقارنة مع رؤية الآخرين له، ونظرة العربي الذي يجمع بين كلتا النظرتين لتأسيس تصور شامل يسعى إلى تصحيح رؤيته للعالم، بتقديس الاختلاف وقبول التحاور بين الثقافات دون صراع أو انتقاص قد يزيد من حدة التوتر بين أبناء البيئة المحلية الواحدة.
- تتجلى نظرة الآخر الأوروبي اتجاه مستعمرات الدول الإفريقية، في الاستعلاء البادي على كل سائح متجول بين أدغال القارة السمراء، وتجلى ذلك واضحا في كتب الاستشراق الأولى، التي تصف دول الجنوب بالتخلف والتقهقر في كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
- حاول الكاتب ترسيخ نظرة الانبهار التي يشعر بها الإنسان المثقف اتجاه الاختلاف المحمود بين أبناء البيئة المحلية الواحدة، في ظل التعايش السلمي بين جميع طبقات المجتمع، اقتداء بما سنه الإسلام في طريقة التعامل مع الأجانب

الإحالات والهوامش:

[1] سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1985، ص136.

[2] محمد عبد المنعم خفاجي: مدارس النقد الأدبي الحديث، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط1، 1995، ص55.

[3] سعيد بنكراد: سيميائيات الصورة الإشهارية، إفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2006، ص31.

[4] عبد الرحمان بوعلي: الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، مجلة دراسات وأبحاث، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مج12، ع2، أفريل2020، ص80.

[5] سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ص137.

[6] حسن شحاتة: الذات والآخر في الشرق والغرب، دار العالم العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2008، ص17.

[7] ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 2013، ص ص103،104.

[8] محمد رفعت: الآخر بين الرؤية والشاشة، دار المعارف، مصر، د.ط، 2015، ص12.

[9] سعد البازعي: مقاربة الآخر مقارنات أدبية، دار الشروق، مصر، ط1، 1999، ص ص11،12.

[10] الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، دار العرب الإسلامي، لبنان، ط2، 1983، ص27.

[11]محمد رياض وكوثر عبد الرسول: إفريقيا، مؤسسة هنداوي، مصر، د.ط، 2014، ص ص09،10.

[12]يوسف روكز: إفريقيا السوداء سياسة وحضارة، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، ط1، 1986، ص9.

[13]أحمد إبراهيم دياب: "إفريقيا بين المفاهيم الحضارية والممارسات العنصرية، مجلة دراسات إفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي في الخرطوم، السودان، ع4، مارس 1989، ص84.

[14]المرجع السابق، ص 9.

[15]المرجع نفسه، ص11.

[16]مصطفى لغتيري: ليلة إفريقية، منشورات غاليري الأدب، المغرب، ط2، 2021، ص ص25،26.

[17]المصدر نفسه، ص 63.

[18]المصدر نفسه، ص ص20،21.

[19]المصدر نفسه، ص29.

[20]المصدر نفسه، ص ص49،84.

[21]المصدر نفسه، ص19.

[22]المصدر نفسه، ص19.

[23]المصدر نفسه، ص52.

[24]المصدر نفسه، ص ص 26،27.

[25]المصدر نفسه، ص ص24،25.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الكتب:

1. البازعي سعد: مقاربة الآخر مقارنات أدبية، دار الشروق، مصر، ط1، 1999.
2. بنكرادسعيد: سيميائيات الصورة الإشهارية، إفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2006.
3. الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، دار العرب الإسلامي، لبنان، ط2، 1983.
4. حمود ماجدة: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 2013.
5. خفاجي محمد عبد المنعم: مدارس النقد الأدبي الحديث، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط1، 1995.
6. رفعت محمد: الآخر بين الرؤية والشاشة، دار المعارف، مصر، د.ط، 2015.
7. روكز يوسف: إفريقيا السوداء سياسة وحضارة، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، ط1، 1986.
8. رياض محمد وعبد الرسول كوثر: إفريقيا، مؤسسة هنداوي، مصر، د.ط، 2014.
9. علوش سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دارالكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1985.
10. لغتيري مصطفى: ليلة إفريقية، منشورات غاليري الأدب، المغرب، ط2، 2021.

ثانيا: المجلات:

11. بوعلي عبدالرحمان:"الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية"، مجلة دراسات وأبحاث،جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مج12،ع2، أفريل2020.
12. دياب أحمد إبراهيم: "إفريقيا بين المفاهيم الحضارية والممارسات العنصرية"، مجلة دراسات إفريقية، المركز الإسلامي الإفريقي في الخرطوم، السودان،ع4، مارس 1989.